المحاضرة (06): النقد الاجتماعي

تمهيد:

يعد المنهج الاجتماعي في النقد الأدبي من المناهج النقدية الحديثة، التي تقوم على مقولة السياق من مدخل الظروف والملابسات المتعلقة بالواقع والمحيط الخارجي، وبيان مدى تأثيرها في إنتاج النص الأدبي وتحديد مقاصده، فضلا عن أن المقاربة النقدية الاجتماعية تعنى بالكشف عن العلاقة السوسيولوجية بين المنجزات الإبداعية والخطابات الاجتماعية.

دراسة علاقة بين الأدب والمجتمع:

يعد التصور النظري الذي جاء به المفكر الإيطالي "جيوفاني باتيست فيكو" (Vico) (1668-1744) في كتابه الشهير "مبادئ العلم الجديد" الصادر عام 1725، أقدم تناول نظري لعلاقة الأدب بالمرحلة الحضارية، وبالنظر إلى الجهود التي قدّمها في هذا المجال استطاع أن يكون «من أوائل المنظرين في هذا المجال، من خلال اهتمامه بتشكيلات البنية الثقافية وأنظمتها المختلفة، وأثر ذلك على الممارسة الجمالية»[1].

أسس هذا الباحث نظريته على فكرة تأثير البنيات الثقافية وما يتصل بها من أنظمة اجتماعية في توجيه الإنجاز الإبداعي لدى الأدباء؛ حيث اكتشف أن السياق الثقافي من شأنه أن يتحكم في رفع القيمة الجمالية للأعمال الأدبية والفنية، ومن هذا المدخل تحددت «نظريته الفلسفية والحضارية المعروفة بنظرية الدورة التاريخية، وهي النظرية التي بلور فيها، فضلا عن فكرة أن لكل حضارة دورة حياة كاملة، مفهوم نسبية وتطورية الإنجازات الإنسانية في مجالات الفن والعلم والفكر، وهو مفهوم ينبع من فهمه الواضح لدور الإنسان في خلق عالمه الاجتماعي، وعلاقاته ومؤسساته، وبالتالي فنونه الإبداعية، ومن ضرورة تحليل هذا كله بمصطلح علمي مادي، وليس بمصطلح لاهوتي أو كنسي»[2].

ناقش الباحث مفهومي النسبية والتطورية في النشاط الثقافي، مشيرا إلى الأدوار الاجتماعية المنوطة بالفنان والأديب في إنتاج أعمالهما الإبداعية، ومن الناحية التفسيرية التحليلية للمنجزات الأدبية فتقوم نظريته على مبدأ العلمية المادية، بعيدا عن تأثير المرجعية الدينية التي سادت الذهنية الغربية وراحت تسيطر عليها في مختلف مجالات الحياة الإنسانية.

[1] – عبد الوهاب شعلان، الخلفيات السوسيوثقافية للخطاب الروائي الجديد في الجزائر، التواصل في اللغات والآداب، ع37، مارس 2013، ص135.

[2] – صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي – دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1996، ص96.

ومن بين الجهود التي قام بها فيكو في هذا السياق محاولته تصنيف الأجناس الأدبية، والأنواع الفنية، ومحاولة تفسير ظاهرة انتشارها في مرحلة حضارية أكثر من غيرها بالنظر إلى الخصوصيات الاجتماعية والتاريخية المتعلقة بكل مرحلة؛ «فالملاحم الشفوية تناسب جمهورا مستمعا تسوده الأمية، أما الدراما فتقتضي قيام هياكل تحتضن الفن والجمهور معا، ولا يتسنى ذلك إلا من خلال قيام المدينة بنظمها وهياكلها المؤسساتية؛ كالمسارح مثلا، أما الرواية مثلا مشروطة بانتشار التعليم والطباعة والنشر، وكلما استجد في المجتمع جديد اقتضى ذلك تجدد النوع الأدبي وطريقة اتصاله بالجمهور»[1].

توصل الباحث إلى هذا التصنيف؛ المتمثل في ربط الملاحم الشفوية بالجمهور الأمي، والدراما بالمدينة، والرواية بالمجتمع الحديث على أساس سمات الواقع الاجتماعي، الذي يفرض نمطا تعبيريا معينا لتبليغ مقاصده هذا من جهة، فضلا عن أن هذا النمط يستمد مادته من المنظومة الواقعية التي تنتجه من جهة أخرى.

وهناك دراسة أخرى قدمتها الباحثة الفرنسية "مدام دو ستايل" (Mme de Staël) (1766-1817) في كتابها الموسوم بـ "الأدب في علاقته بالمؤسسات الاجتماعية"، الصادر في فرنسا عام (1880)، والذي يعدّ «أول محاولة في فرنسا لجمع مفهومي الأدب والمجتمع في دراسة واحدة منهجية»[2].

يندرج هذا الجهد في سياق التأثر بفكرة علمنة البحث الأدبي في جميع مجالاته، حيث أقبل النقاد تحت وصاية هذا التيار إلى جعل النظرية النقدية أقرب ما تكون إلى المعالجة العلمية من حيث الإجراءات، وخطوات التحليل، وكذلك النتائج المحققة، بالرغم من الاختلاف الكبير بين الظاهرتين الأدبية والعلمية، فما يصلح لهذه لا يصلح لتلك بالضرورة، كان هذا أكبر مزلق ترتبت عليه أزمة خطيرة على مستوى المحمول الإجرائي للخطاب النقدي السياقي لاحقا.

ومع ذلك تعد دراسة "دوستايل" من أهم الدراسات التي أسست للبحث في علاقة الأدب بالبيئة الاجتماعية، انطلاقا من التركيز على «جدل التأثير والتأثر المستمر بين الأعمال الأدبية والشروط التاريخية والاجتماعية، ورأت أن كل عمل أدبي يتغلغل في بيئة اجتماعية وجغرافية ما؛ حيث يؤدي وظائف محددة بها»[3].

أشارت الباحثة إلى علاقة الأدب بالمرجع التاريخي والاجتماعي، وأنها تتميز بخاصية التأثير المتبادل، وكذلك الاستمرارية، بغض النظر عن طبيعة المرحلة الحضارية، كما أشارت أيضا إلى مفهوم الوظيفة الأدبية من الوجهة الاجتماعية وكذلك البعد الجغرافي المتعلق بالبيئة.

---

[1]– حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر، مرجع سابق، ص49.

[2]– روبير إسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، تعريب آمال أنطوان عرموني، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ص23.

[3]– أنور عبد الحميد الموسى، علم الاجتماع الأدبي (... منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد)، مرجع سابق، ص86.

وفي هذا السياق اعتمدت الباحثة في تفسيرها لأثر الواقع الاجتماعي في توجيه الممارسات الأدبية على المبدأ القائل بأن «الأدب تعبير عن المجتمع»[1]، أما عن منهجها في الدراسة التطبيقية فقد وظفت المعاينة الميدانية؛ وهو ما صرحت به قائلة: «لقد قصدت أن أختبر مدى تأثير الدين، والعادات، والقوانين على الأدب؛ ومدى تأثير الأدب على الدين، والعادات، والقوانين»[2].

حددت الباحثة في هذا السياق معطيات السياق الاجتماعي؛ متمثلة في الدين، والعادات والتقاليد، فضلا عن قوانين العرف الاجتماعي، وقد تبيّن لها تجلي هذه العناصر في النصوص الأدبية من مداخل عدة؛ مثل الموضوع، والشخصيات، والأماكن، وغيرها.

مقولات النقد الاجتماعي:

قام النقد الاجتماعي على مجموعة من المقولات التأسيسية، التي راح يعتمد عليها في تحليله للممارسات الإبداعية، ونخص بالذكر الالتزام والانعكاس، وهما من المفاهيم التي تختص بعلاقة الأدب والفن بالمرجعية الواقعية الاجتماعية؛ فعادة ما يفسّر الناقد هذه العلاقة بكونها التزاما أو انعكاسا، مع احتمال التداخل بين المعنيين على مستوى التجريب الإبداعي.

الالتزام:

يعد الالتزام من أهم المقولات التي قام عليها الفكر النقدي الاجتماعي؛ ذلك أن الأديب أو الفنان ملتزم بحكم أنه ابن بيئته، بقضايا المجتمع الذي ينتمي إليه، وأن أي مظهر من مظاهر التزامه الفني ليس إلا مظهرا لالتزامه الاجتماعي؛ وتعد الكتابة من أبرز الوسائط الإبداعية لممارسة هذا الالتزام؛ ذلك أن «الكاتب هو الوسيط الأعظم، وإنما التزامه في وساطته»[3].

إن فعل الالتزام في الكتابة يعكس شخصية الكاتب، ويميط اللثام عن مدى ارتباطه بروح العصر، فضلا عن اهتمامه بقضايا المجتمع، وبقدر انشغاله بموضوعات تهمه على الصعيد الشخصي بقدر استنطاقه لصوت الجماعة وما يتصل بها من آمال وتطلعات.

---

[1]– بسام قطوس، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، جمهورية مصر العربية، ط1، 2006، ص63.

[2]– ج.ك. كارلوني وج. ك. فيللو، النقد الأدبي، تر. كيتي سالم، مراجعة جورج سالم، منشورات عويدات، بيروت– باريس، لبنان – فرنسا، ط2، 1984، ص21.

[3]– جان بول سارتر، ما الأدب؟، مرجع سابق، ص81.

ولا يتحقق الالتزام الاجتماعي للفنان أو الأديب في نصوصه لمجرد تصوير الوقائع والأحداث الاجتماعية تصويرا لا يتخطى كونه فوتوغرافيا، بل «إن النص يمتح من عالم الواقع الاجتماعي الذي يهيمن على الفنان، ويدخل في تشكيل المادة النصية، إذ يستقي الفنان تجربته على وجه يعيد إنتاج العلاقات، ويسمو بها إلى فضاء خاص تتموقع فيه الأبنية، معلنة لحظة المكاشفة الشعرية»[1].

من هذا المنظور يمكن أن نكاشف التصور الايديولوجي للمبدع انطلاقا من السمة الواقعية المهيمنة في أعماله، حيث يشتغل عليها أكثر من أي عنصر آخر في تشكيل بنياته النصية، ويدعم موقفه الفني والجمالي بتكثيف المؤشرات السياقية المتعلقة بها.

الانعكاس:

الانعكاس (Reflection) من المصطلحات المرادفة لمعنى "مشابهة الواقع"، أو "مماثلة الواقع"؛ وهو «مصطلح قديم معناه اتخاذ العمل الفني ملامح مماثلة للواقع المادي الخارجي»[2]؛ والمماثلة هنا لا تعني بالضرورة نقل الوقائع والأحداث كما وقعت فعلا، بل تعبّر عن وجهة نظر المبدع في الحياة؛ وإذا افترضنا وجود نوع من النقل الفني للمشهد الواقعي فإنه لن أكثر من محاكاة جزئية له.

إن العمل الأدبي يملك من الكفاءة التعبيرية ما يجعله مظهرا من مظاهر الواقع، إلا أنه لا يستطيع امتلاك هذه الصفة إلا «إذا بدت الأفعال والشخصيات فيه للقراء مفهومة، وذات معنى، وتمثل الواقع تمثيلا محكما، وتتحقق مشابهة الواقع ... بالبراعة في انتقاء وعرض ما يعتقد القراء أنه يشكل مادة الحياة وجوهرها»[3].

يتدخل القارئ في مقاربة المنجز الأدبي والحكم عليه من حيث مدى انعكاس الحياة وآثارها الواقعية فيه، ولهذا يأخذ الأديب في اعتباره سلطة القراءة؛ التي من شأنها ترسيم الحدود الواقعية لأي عمل أدبي بواسطة قياس خاصية الانعكاس، ومع ذلك لا يمكن للأديب إلا أن يلامس جانبا من جوانب الواقع الاجتماعي، وكذلك القارئ لا يسعه أن يفهم هذا انعكاس السوسيولوجي في المنجزات الأدبية إلا في حدود نظرته الواقعية الخاصة التي لا تمثل حتما حقيقة الواقع بل تحاكيه.

[1] – ديفيد هوكس، الإيديولوجية، ترجمة إبراهيم فتحي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص99.

[2] – محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم إنجليزي – عربي، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، مصر، ط3، 2003، ص124.

[3] – إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، مرجع سابق، ص326-327.

خلاصة:

بالرغم من الجهود النقدية التي حظي بها المنهج الاجتماعي في دراسة الأدب وتحليله إلا أن المبالغة في إجراء مقولات النظرية التحليلية السوسيولوجية قد أضرت بالممارسة النقدية من هذا المدخل، حيث استحال النص الأدبي مجرد وثيقة اجتماعية مساعدة في تصديق الفرضيات الاجتماعية لدى الناقد على حساب القيم الجمالية التي يفترض أن تشغل حيز الاهتمام الأولى لدى الناقد بغض النظر عن توجهه النقدي.